

فلسفة الانتماء في الخطاب القصصي الجزائري

د. أوريدة عبود جامعة مولود معمري تيزي وزو

abboudourida@yahoo.fr

الملخص:

تـحمل الأرض بكل عناصرها اللغوية طابعا بنيويا يفضي في جوهره الدلالي إلى تحقق وجود كوني يؤكد علاقة ثابتة، أنا أنتمي لهذه الأرض فأنا موجود، ومن ثم فإن هذا الانتماء قد تحقق عبر استنطاق تاريخها وطبيعتها ومقدسها. وعلى هذا الأساس فإن القصة الجزائرية في تصويرها للمكان/الأرض يتجاوز النقاط الصورة البصرية إلى المستوى الفلسفي والنفسي.

الكلمات المفتاحية: الانتماء، الأرض، الهوية، الوجود، الاستقرار، التشبث، الثورة، الكيان، الخطاب القصصي

abstract:

The earth, with all its linguistic elements, bears a structural character that in its semantic essence leads to the realization of a universal existence that confirms a fixed relationship. I belong to this land. I am present, and therefore this belonging has been achieved by questioning its history, nature and holiness. On this basis, the Algerian story in its portrayal of the place / earth goes beyond capturing the visual image to the philosophical and leve Keywords: psychological belonging, land, identity, existence, stability, clinging, revolution, entity, narrative discourse

مقدمة:

لطالما شكلت الثورة الجزائرية بؤرة الكتابة السردية ومرجعية الحكي وتشكلاته، وطالما أثنت الذاكرة زمن القصة ومكانها باستقراء المتن القصصي، تطالعنا نيمة الثورة مهيمنة سواء تعلق ذلك بسرد بطولاتها أو بالتغني بالأرض والتعلق بها. ذلك أن الإنسان مرتبط بأقدم فضاء وأرسخه وهو الأرض، ووجوده لا يتحقق إلا من خلال انتمائه لهذه الأرض. ، لذلك ارتبط البحث عن الهوية بالبحث عن المكان والنضال من أجل استرداده إن كان مغتصباً. فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها بل تنبسط خارج هذه الحدود، حيث المكان الذي يمكنها أن تتفاعل معه.

لقد أوجدت الثورة في أدبنا اتجاهًا جديدًا - الاتجاه الواقعي - فعبّر أدباؤنا عنه بصدق وموضوعية، وعبد الله ركيبي أحد الذين عاشوا الثورة بوجدانهم وعبروا عنها في أدبهم، وقد استطاع أن ينقلنا من خلال مجموعته القصصية "نفوس تائرة" إلى واقع الثورة الجزائرية فنحياء من جديد بواسطة البعث والإضافة.

إن صدق تجربة ركيبي، وسعة رؤاه يحدّدان وفقًا لمجموعة من المعايير، وكانت نظرتة إلى المكان (الأرض) مقياساً مهماً. وهذه التجربة أعطت للمكان بُعداً دلاليًا ونفسيًا وفلسفيًا مستمدًا من المراحل التاريخية المتميزة بحسّ مأسوي عام.

1- علاقة الانتماء/تجلياتها و تشكلاتها :

يكتسب المكان معناه حين يعاش ويدخل في أفق التجارب الحياتية كالاختراق، والدفاع، والبناء والتشبيث والاستقرار، فالإنسان يعلن دائماً عن حاجاته إلى إقرار وجوده والبرهنة عن كينونته من خلال الإقامة في مكان ثابت سعيًا وراء رغبة متكاملة في الاستقرار وطلب الأمن للذات.

تتجلى علاقة الانتماء بتشكلاتها وتجلياتها من خلال عمق علاقة الإنسان بالأرض وما تحملها من قيم وثوابت، هي رمز وعلامة الانتماء الديني والحضاري، وتشبّث بها يثبت حقّه في الاختلاف ويرفض الاستلاب والتّغريب.

تظهر علاقة الانتماء في معظم قصص عبد الله الركيبي "منها على سبيل المثال (في المغارة، راعي الغنم، اختار الطريق، وجود... ولكن، نورة الصّغيرة، الإنسان والجبل)، بحيث تتجلى في إدراك البطل الدور الذي يؤديه مع إخوانه لمحاربة المستعمرين، واسترجاع مكانه الطّفولي، فلو لا هذه العلاقة ما كشفت قصّة (اختار الطريق) عن الرّابطة التي تجمع بين "بشير" و الريف، مسقط رأسه، وما جرفه سيل الحنين للعودة إليه.

تنقسم قصة (اختار الطريق) إلى شقين متقابلين، عالم الريف وعالم المدينة، عالم الحلم وعالم الواقع.. والفجوة الظاهرة بين المدينة والريف هي فجوة بين الحلم والواقع، فجوة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون. وصنع ما يجب أن يكون لا يتم إلا في الريف والجبل والأوراس، والالتحاق بالثوار، هنا يجد البطل الشرعية المعقولة والتاريخية، ويحقق عبره إمكانية التّواصل مع الآخر. يقول ركيبي: « لم يكن يتوقّع حضوري بالمرّة، فقد باعدت بيننا الأحداث .. فهو أصبح من سكّان العاصمة يدير مدرسة عربيّة في الجزائر.. وأنا أعيش في قرية من قرى الجنوب الجزائري، وهناك هذا الوليد الجديد .. هذه الثورة المباركة التي باتت الشّغل الشّاغل للجميع »¹.

البطل ذو الأصول الرّيفية وجد صعوبة كبيرة في التكيف مع طبيعة مكانها المعقّد، ولقد حاول جاهدا التكيف والتلاؤم معها دون جدوى، إذ إنّ الشّعور بالاستبعاد والانفصال والمعاناة كان سيّد الموقف، فأهمّ شيء يفتقده البطل في هذا المكان هو

حرارة الريف والعواطف بين الإخوة المجاهدين. الأمر الذي يؤكد لديه الشعور بالانفصال والاستبعاد: يقول القاص: « وبدأ يسأل من جديد عن مجيئي وعن الأسباب، وعن الثورة في الأوراس .. وعن حياتي ... فقد كنت قريبا من مناطق الثورة .. فالجديد عندك .. ولم يترك لي فرصة للإجابة أو الحديث، بل كان يعود إلى الأسئلة عن الثوار .. وهل رأيتهم؟ وماذا يلبسون؟ ما هي انطباعاتك عنهم؟ ولم استطع أن أروي ظمأه ولهفته التي لا حد لها »².

يجسد هذا المقطع حس القلق والضيق المسيطر على البطل في عالم المدينة، الذي ولجه بعد توديعه لمكانه الأليف، فيتضاعف النفور بين المكانين (المتصل والمنفصل). فكل معالم المدينة تؤكد للبطل إحساسه المرير بالانفصال وتمنعه من الانخراط فيها يقول القاص :

- « خيرا لك لو ذهبت إليهم لترى بعينيك حتى تروى ظمأك نهائيا.
- يا ليت هذا يتم في أقرب فرصة.. إننا نسمع بأشياء عن الثورة في الأوراس وفي القبائل، ولكننا لا نعرف عنها الشيء الكثير. هل ترى أنها ستمتد إلى هنا ؟
- حتما إن الثورة ستعم أرجاء الجزائر. هذا هدف من أهدافها ..
- لم يعلق على حديثي بشيء، وإنما استغرق في تفكير عميق، فبدأ ساهما كأنه يحلم فقلت له مداعبا:
- أين أنت الآن ؟
- إنني كنت مع الإخوان .. كنت معهم في الجبال ..
- أعرف أنك خصب الخيال، تستطيع أن تخلق في أي مكان تشاء .. »³.
- غدا الريف بالنسبة للبطل حلما لا بد من تحقيقه، وغدت المدينة جحيما يجب التخلي عنها، فأخذ يجترّ الذكريات ذكريات الريف والجبال بوصفه المكان الأليف. لم يعط المكان المنفصل (المدينة) للبطل شيئا مما يتوقعه فيه، يطمئنه إليه، بل جرّده من كلّ ما هو أثير لديه، واستنفذ كلّ مضامين عالمه المرغوب ومكانه المحبوب.
- إن ترك البطل الريف والحصن الأليف، وتموضعه في مكان منفصل عن ذاته، خلخل توازنه، واتّصف واقعه بالضيق والتشنج، فشعر بالحصار الكلي وفقدان فعل القيمة في الحياة.
- ولعلّ هذه المعاناة الصريحة والحاجة الملحة في الالتحاق بالمكان الأليف لا تتم إلا عن خوف عميق ومتأصل، وشعور بالقمع المستلّط على الذات، وإدراكه أنّ هذا المكان الذي يوجد فيه رمز إشاري للإحباط وقبر لآماله: يقول البطل :
- « - أرجو أن يتحقّق هذا الخيال ويصبح حقيقة .. والحقيقة ما هي ؟
- إنّها تنبت خيالا في رؤوس أصحابها ثم تنبش للواقع بعد العمل .. وسأعمل حتى يصبح هذا الحلم حقيقة.
- إن شاء الله .. »⁴.

يرغب البطل الخلاص من المكان الذي لا يحقق طموحه (حالة سلبية)، وهو يؤمن بحتمية الانفصال عنه. والشيء الذي صعد هذا الانفصال هو أنّ طبيعة الريف وملاح أمكنته كانت قائمة في وعي البطل، ومتغلغلة في نفسه، بل هي كيانه نفسه. ففي الريف الثورة وتحقيق الحرية، وما أجمل الاتصال بالمكان الأليف والارتقاء في أحضانه والموت في كنفه. مارس البطل على المكان الذي يعيش فيه الآن غيابا وتعثما، وعمل على تقريب المسافة بينه وبين الريف ، فبدأ التفكير في العيش فيه، لأنّه أشدّ التصاقا به، وأكثر حباً له ذلك أن الانسان: " يستطيع أن يقهر المكان لا من خلال الحركة الحسية وحدها، بل من خلال الحركة الفكرية والخيالية التي تعدّ من أهمّ خصائصه وأكثرها تمييزاً »⁵. إنّه الانتصار على المكان في حدوده السلبية التي لا تنتج ولا تخصب.

إنّ البطل على الرغم من مقامه الطويل في المدينة إلا أنّه لم يستطع التكيف مع طبيعة مكانها، ولا يسمع فيها ما يدور هناك في الريف من أخبار عن الثورة وعن الثوار. لذلك لم يكن وجوده وحضوره في المدينة سوى انفصال مستمر عنها. بينما كان غيابه عن الريف والجبل اتّصلاً دائماً به. ولا ريب أنّ الانفصال يستدعي الاتّصال لأنّ كلّ شيء يحمل نقيضه، والحلم دائماً ينشط لاستدعاء المكان الأليف المستقر في عمق العمق. فما لم يلبّ في عالم الواقع، تجسّد في عالم المتخيّل الذي تتكفّف فيه أفكار الإنتاج والانتصار.

هذا الاستدعاء سيكون من خلال الأمل وحلم اليقظة الذي يكفل له أن يتشبع بالحريّة. فهناك حضور دائم في الوجدان للمكان الأليف، حضور إنساني وطبيعي وحميمي، يكشف في أبعاده المختلفة عن شرعيّة الثورة لا شرعيّة الاستعمار.

هناك مكان الذكريات ومكان تحقيق الذات، هناك يزول التناقض بين البطل والمكان: « كما أنّه حلم يأخذ شرعية حضوره من حيث ارتباطه بالجذور الخفية للذات، أي بالهوية والانتماء الحميمي للمكان الأوّل المفقود »⁶. فالمكان هنا يجسّد الهوية والانتماء ويكرّسها، فتتفتح الرّؤى بانفتاح الوعي يقول القاص: « وافترقنا مرّة أخرى .. وانقطعت أخباره عنيّ حتى وصلتني منه رسالة .. رسالة موجزة ... أمّا أنا فأئنّي عازم على أمر أرضي به الله والضّمير .. وإلى اللقاء .. وفهمت كلّ شيء .. فهمت أنّه قد عقد العزم على الالتحاق بإخوانه في الجبال .. وتذكّرت سهومه واستغراقه في آخر لقاء لنا .. عرفت أنّ الخيال أصبح حقيقة، وأنّ حلمه بات واقعا »⁷.

لقد التحق البطل بالمكان الذي يمكنه أن يحقق ذاته، فخرج من دائرة الحلم إلى دائرة الواقع، واقع اختاره عن وعي ورغبة: « فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار، وأماكن طاردة تُلْفِظنا، فالإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقيّة جغرافيّة يعيش فيها، ولكنّه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، ومن ثمّ يأخذ البحث عن الكيان والهويّة شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها، فاختيار المكان وتهيئته يمثّلان جزءاً من بناء الشّخصية البشريّة »⁸. إنّ الهويّة ستكون شرطاً لتحقيق التّوازن والتّفاعل، وهي في الضّفة الأخرى تكوّن شكلاً من أشكال الصدام مع الغريب. استمدّ البطل روح نضاله من شعور الإيمان بالتّوحد بالأرض، فهو أنموذج الإنسان الفلاح المرتبط بالأرض ارتباطاً عضويّاً، وهو الإحساس الذي جعله يأخذ مساراً مخالفاً لحياة الحاضر ويختار طريقاً آخر لها.

لقد استطاع عبد الله ركيبي أن يحدث، جمالياً، من خلال هذه القصّة حالة من التّفاف بين البطل (بشير) وعالم المدينة إلى درجة أصبح فيها غير قادر على المقاومة والاستمرار لذلك يقرّر العودة إلى المكان الأكثر اتّصالاً به: « وكان بي شوق لاهف إلى معرفة مصيره .. إلى معرفة الجهة التي انخرط فيها .. ووجدت من قد صحبه وعرفه عن قرب .. رقد معه في الكهوف فتتقلّ معه في الأحراش والوديان ... حضر معه آخر معركة في جبال (بوسعادة) حدّثني عن نشاطه الجَمّ وشجاعته النادرة وعن رتبته في جيش التّحرير كضابط جدير بهذه التّرقية »⁹.

إنّ علاقة البطل بالريف تظهر في أنّ صورها وأعماقها، من خلال خياله وتصرفاته وتساؤلاته. فلكلّ: صورة عظيمة عمق حلمي بعيد الغور يضيف إليه التّاريخ الشّخصي لونا خاصاً¹⁰، لذلك غدا المكان عنصراً فاعلاً في أحداث القصّة وأفعال بطلها. هذا البطل الذي أسقط مشاعره وأفكاره عليه، وكأنّه الكائن الذي ألفه وأحبّه واندمج معه، فانتابته حالة النقص والأسى في الابتعاد عنه. ومن ثمّ منح له القوّة ليتحدّى الزمن القاسي، فانطلق إليه ليشترك إخوانه في إخراج الوطن من الرّعب والدمار. إنّه سعى إلى حياة أمثل بكلّ ما يمتلك من إرادة التّضحية وإيمان الانتصار: « حقّاً لقد اختار الطّريق الصحيح .. طريق الحرية »¹¹.

إنّ قرار عودة "البشير" إلى القرية قرار نبت من أعماق الذات، رغبة جياشة حركتها قوة الحنين الفيّاض، العنيف، الثائر، من ذلك أنّ القرية هي الرّمز الأكبر للطبيعة، والقرية تمثل الأرض عامل حرية وما تمنحه من شعور بالتواصل والاستمرار، والعودة إليها والاتصال بها هي عودة إلى أم خالدة. والقرية هي مكان الحرية، فقد صنعت في أكناف الثورة ما يكفيها بأن يقرّ لها بما تمثّله من رموز ودلالات.

إنّ ما يشعر به "البشير" في المدينة لا يعكس الصورة التي يبتغيها، فهو لا يجد فيها أثراً لحلمه ورواه وخياله، لذا استوجب تجسيمها في مكان آخر، مكان متّصل فيه يسعى قدما إلى التّغيير والتّحول والمشاركة في صنع الاستقلال.

اختار البطل مكانه الحقيقي الذي يمثّل هنا علامة دالة على الذات، إنّهُ مكان تتناغم فيه قيم السّلام والحرية والأخوة والهدف النبيل. إنّهُ كيان الإنسان الجزائري الذي بدأ يكشف في إطار هذا الفضاء، وأنّه بحاجة إلى تعديل وتغيير وإثراء.

لقد حظي البطل (بشير) كشخصية ومكان بأهمية خاصة واستثنائية في هذه القصة، إذ يُعد العمود الفقري الذي يربط بين الأمكنة في كليتها. فهو المفصل الذي اعتمد عليه ركيبي في ربط الأمكنة والأحداث بقلب وجداني يشتعل عشقا ووجداناً. وبهذه الطريقة فتح ركيبي المجال لمكان أوسع وأرحب يربط الماضي بالحاضر، الإحساس التاريخي والفني ضمناً على مستوى المكان الإيديولوجي، كلّ هذه الأشياء تمرّ عبر فلسفة الانتماء، عبر حياة المكان، حياة الأصل والتاريخ، حياة الأمة التي تربط بين أبنائها أواصر ثابتة، ثبات الموقف والرؤية.

والمقياس هنا يحمل بُعداً حضارياً وثقافياً و فلسفياً يتصل بتاريخ الوطن وتراثه وأصالته التي ينبغي الحفاظ عليها، لأنّها هي التي تحدّد هويتنا انتماءً وجذوراً وانفتاحاً على حضارات الأمم في إنسانيتها. وتظلّ ضرورة انهيار استعمار الحضارات رغبة ملحة لتثبيت التّواصل بين الذات والعالم الذي يبحث عن الإضافة التي تحقّق للإنسان الكليّ سعادته ورخاءه واستقراره.

2- الانتماء للأرض مرآة للهوية:

الإنسان لا يحتاج فقط إلى رقعة جغرافية يعيش فيها، وإنّما نجده يصبو دائماً إلى مكان حميمي يضرب فيه بجذوره لتأصيل هويته والتعبير عن كينونته ووجوده، حيث يتحوّل هذا المكان إلى مرآة ترى فيها الذات صورتها، وهو ما حاولت قصّة (وجود ... ولكن) أن تبلّره من خلال تجربة البطل في مكان الغربة في المكان البعيد. وهو مكان طارد غريب لا يشعر فيه بالأمان والاستقرار. فهو يعدّ في هذا المكان من الأبعاد والأغراب، والشخص البعيد هو شخص مستكبر، مرفوض، غير مرغوب فيه، ولهذا يشعر بأنّ وجوده بلا معنى، ما لم يلتحق بوطنه وأهله، أو بعبارة أدقّ إنّ لم يلتحق بالمكان القريب، والأرض الثائرة.

تسلّط القصة أضواءها على شخص يحسّ بالغربة إحساساً قاتلاً، يهزّ الشوق إلى المكان القريب إليه بروحه ووجدانه، على الرّغم من أنّه يبعد عنه بجسده، يتّصل بأصدقائه ليخوض معهم الحديث عن الحرب التي تدور في الجزائر، وعن مصير الأطفال والنساء وآلام الشعب، فيعيش اضطرابات نفسية في منتهى القسوة، يحسّ بوجوده الناقص وإنسانيته المقيدة في هذا المكان الذي لا تربطه به أي صلة فيبدأ بتساؤلات عن الحرية والحياة: « ما قيمة الإنسان في هذه الحياة؟ هل قيمته في حريته؟؟ أم في وجوده .. مجرد وجوده ؟! ما معنى حياتي أنا؟ ماذا يعني وجودي؟ »¹².

غدت نفسية البطل سلبية يائسة، إنّهُ يعاني من التمزق الذاتي والضياح النفسي لا يعرف ما يدور حوله ولا يعرف سبب اضطرابه وقلقه. يواصل السارد قائلًا: « فينتابه دوار يبعث الغثيان في نفسه ويوشك أن يطرحه أرضاً ... فيلتفت يمينا

وشمالا كالمذعور .. فلا يرى سوى أمواج من البشرية معظمهم يمشي متمهلاً يتسكع دون هدف ... ويجد نفسه يضرب في الطريق مع هؤلاء الناس ولكن دون جدوى .. دون هدف أو غاية. وبضيق بالناس وبالأحياء جميعاً.. لماذا ؟¹³

يتبدى لنا بجلاء من خلال تصرفات البطل وتفكيره، صراعه في أرض الغربة لا يرى فيها سوى حيز رهيب، يفترسه التناقض، وتتقاسمه أفكار متضاربة، وتتفاعل فيه معطيات متنوعة لا ترتبط بالمنابع الأصلية في النفس الإنسانية يواصل قائلاً: «إنه لا يجد جواباً لهذا السؤال الذي رددته لنفسه المرات العديدة .. فهو لا يعرف سبباً لهذا التبرم، وهذا القلق وهذا الضيق .. وهذا التوتر الذي يوشك أن يدمره .. وهذا الاضطراب الذي يلازمه في الليل .. في النهار .. في اللحظة .. وحتى في أحلامه .. فأحلامه فزعة مضطربة كلها شقاء .. ومرارة .. يحس بكل هذا وهو لا يعرف السبب»¹⁴.

استخدم ركيبي هنا أسلوب الحوار الذاتي ليصور القلق والتوتر اللذين أوشكا على تدمير البطل. والواقع أن هذا المقطع يجسد أزمة الحرية الإنسانية والضيايق في ظل الأنظمة الغربية الغاشمة، تحت سيطرة فلسفة الاستعمار الفرنسي المدمرة.

إن صورة الضيايق الإنساني التي نستشفها من خلال تفكير البطل وسلوكه في هذا المكان ترمز إلى ضيايق الشعب وفقدانه لهويته، فعندما يكون الإنسان في الغربة يشعر بالإحباط، تزداد قساوة المكان وغرابته، فتتعدم الألفة بينه وبين ذلك المكان، ويولد العجز في التفاعل وفي الاستمرار فيه، وتغدو الحياة فيه مستحيلة وعقيمة وبائسة بعيدة عن موطن الائتلاف، حينذاك تبدأ الشخصية الأصلية والوطنية تهزّ في الخفاء، سرعان ما تطفو على سلوكه وإحساسه. يقول السارد: «ربما لأنه بعيد عن الأهل والوطن.. وربما لأن الأخبار قد انقطعت عنه.. وربما هناك أشياء أخرى لم يستطع أن يكشفها في نفسه!! ويهزّ الشوق إلى الوطن الحبيب فتتساب دمعتان .. تتسابان على خديه .. فيتركهما حتى تبللان ذقنه ويحس بحرارتها تكاد تحرق هذا الذقن الذي كرهه هو الآخر وكره كل شيء في حياته .. ويغمغم: آه أين الأرض الثائرة .. ؟»¹⁵. إنه يشعر بطاقة حميمية تجذبه إلى أرض الوطن فتحثويه احتواءً عاطفياً حميمياً.

إن صورة الوطن تحتل حيزاً كبيراً في نفسية البطل، ذاته مرتبطة به. وضياقه مقترن بضياقه. وعلاقته بهذا المكان ستؤكد بتأكيد الهوية. يواصل ركيبي قائلاً: «ويجد نفسه يخلق مع خياله في أرجاء الجزائر.. يجوب كل الأماكن التي وطنتها قدماه .. ويتحدث مع الأهل والأصحاب.. يخوض معهم الحديث عن هذه الحرب التي طالت وامتدت.. ويعيش أيام الثورة التي مرت به هناك.. فتتابع الأحداث في ذاكرته بسرعة البرق.. فيرى جنود العدو يربعون أبناء وطنه ويعيثون فساداً في الأرض الطيبة»¹⁶.

يقف البطل موقف الحائر الثائر في فلول الغربة، وهو كسير القلب، يكي وطنه الجزائر، شريد الفكر لا شيء يأنس به وينسيه همومه وهو في ديار الغربة سوى هذه الذكريات، راح يخاطبها على عادة المهاجرين الذي وجد فيها ما ينسيه أحزانه.

وبمقتضى هذا السلوك وهذه الذاكرة ينتقل البطل إلى الأرض الثائرة فتتجلى ازدواجية المكان بوضوح، ويتوزع البطل بينهما، بين نفسه وبين التاريخ، بين الحاضر والماضي، فيملأ إحساسه بالفراغ بما يكتنزه من ماضيه من حركات وأصوات عهدها في المكان الأليف، هذه الحركات والأصوات جزء لا يتجزأ من ماضيه ومن قريته. وكون البطل يستعيد لها الآن وهو في فرنسا يعني أنه يفرض على الزمن في المكان المرفوض وتيرة غير وتيرته وكأنه هو الحاضر وهو الحقيقة.

إن الخيال المكاني يكسر الحواجز ليرحل بالبطل نحو المكان الذي يتنفس من خلاله، وهو في الغالب صورة الأرض الثائرة، التي أصبحت نواة للكيان أو للهوية صارت تعلن عن ذاتها عبر كل حركة يقوم بها البطل أو كلمة يقولها.

إنّ المكان علامة على الجذور الأصلية التي تشدّه إليه لهذا يردد : « وطني .. وطني .. ولا تغيب عن ذاكرته حتّى أبسط الأشياء »¹⁷. عندما ينفى الإنسان من وطنه تتولّد علاقة خاصة بينه وبين المكان المفقود، فيحسّ بالضّياع والموت واللاوجود، ما يدفعه إلى البحث عن مكانه المسلوب، حتّى إن كان ذلك على مستوى الذاكرة والخيال التي تكسّر الحدود. يعاني البطل من قسوة الغربة ، من واقع يسلبه حقّه، ويحقّره، فأراد أن يتحرّك من الوجود المتناقض الذي فرض عليه، وقد حرم من الحرّية والانتماء الطّبيعي إلى وطنه الأصلي وإلى دينه الموروث. واقع مرير ساقه ظلمه إلى هذا المكان الذي يحسّ فيه بالنفور والرغبة في مغادرته بشكل أو بآخر. يقول ركيبي: « لم يقع له شيء يمكن أن يسبّب له هذا القلق، فأيامه متشابهة لا طرفة فيها ولا تغيير ... إنّّه يجتّر يومه كأسمه تماما.. فليس الزّمن لديه سوى ليل ونهار يمرّان في تنافل وتناوب.. ولا شيء بعد ذلك !!

هل انعدم شعوره بفاعلية الزّمن؟ هل تساوت لديه الحوادث ومعطياتها، فبات لا يفرّق بين الحقيقة والوهم ؟؟ ويعود إلى نفسه، ويوبّخها ويلعنها، يودّ لو يخنقها.. لو يمزقها ليرتاح نهائياً منها ومن وساوسها.. وشكوكها التي تعدّبه »¹⁸ يجسد البطل في هذه القصة مسألة ذات أبعاد دلالية معنوية وتاريخية في آن واحد. إنّها أزمة الحرّية الإنسانية الضائعة في ظلّ النّظام الغربي القاهر للشّعوب: «واستلاب الحرّية يعني استلاب الوجود وإهداراً للحياة»¹⁹. فأزمة البطل في هذا المكان وإحساسه بالحياة المعقّدة والمتأزّمة هي نتيجة كارثة الاستعمار المدمرة التي تضع البشر في الدّروب الشائكة. وحتّى الزّمن فيه ، خاص يتخلّل الذات الضائعة، ويطبّعها بحركته الزاكدة من شأنها تبيد الإحساس وتعطيل سيرورة الحياة، حياة فرد وحياة أمة.

3- الانتماء تأكيد للوجود:

جاءت قصة "وجود...ولكن " لا لتجسّد أسى فردياً فحسب، وإنّما لتعبّر عن الهم الشّعوري للإنسان الجزائري، ولتوحي بكلّ أركان الأزمة التي يعانيها الفرد في ظلّ المجتمع الفرنسي، ممّا جعل هذا النصّ يقف كصورة جدلية تشهد التناقض بين القيم الوقائعية السائدة المفروضة والقيم المرغوبة المنشودة، كما تجسّد صورة الإنسان الجزائري الذي لا يرضخ للإغراءات المادية، لأنّه أدرك الإدراك كلّ أنّ أقبح ما يمني به الإنسان هو افتقاده لذاته ورهنها لغيره. يظل بطل القصة يشعر بإنسانيّته المقيدة وحياته المبتورة، وكيانه المهّدّد حتى يدرك أنّ وجوده الناقص سيحقّق فقط في أرضه: « لقد تنكّر الحديث الذي دار بينه وبين بعض الزّملاء.. كانوا يتحدثون عن الجزائر.. وعن الحرب التي تدور فيها منذ سنوات... إنّهم يذكّرونني بوجودي الناقص.. بكياني الذي يحتاج إلى شيء آخر.. شيء غير الحركة والنّفس.. شيء يعطيني المعنى الحقيقي لوجودي، لذاتي كإنسان.. إنّني أحتاج إلى الحرّية.. إلى هذا الشّيء الذي لا معنى لوجودي من غيره .. ولا قيمة لإنسانيّتي بدونه »²⁰.

وجود البطل لن يتحقّق في ديار الغربة، لذلك سيعزم على الالتحاق بوطنه وبالثّورة ومساندة الشّعوب لمقاومة الغزاة وتحرير الأرض الطّاهرة. يواصل ركيبي قائلاً: « ويظهر العزم في هذه النّظرة .. فيتنجّج في خطّ مستقيم .. في حين قد أحسّ بالارتياح .. وشعر بالغبطة تملأ نفسه .. فانبسطت ملامح وجهه وهو يحدث نفسه: سأحقّق ذاتي .. وسأكمل وجودي الناقص كإنسان.

وأخذ يمشي .. ثمّ يمشي، وقد عزم على أمر في نفسه .. »²¹.

إنّ التحوّل الذي تجلّى في مستوى تفكيره كان نتيجة صراع نفسي متولّد من هموم واقعية أحدثته الغربة وصورة الثّورة التي بدأت تسيطر على تفكيره ورغباته. فالصورة الفردية للبطل ترمز إلى الشّعوب الجزائري الذي مارس الرفض والنّمرّد.

والثورة هي الخلاص الوحيد للضياع والمآسي، ومن ثم تحقيق الوجود. والبطل في ظلّ التمزق والبؤس النفسي في هذا المكان هو الشعب في ظلّ الاحتلال.

شكل ركيبي لوحة فنية جسدت الغربة والتمزق والبؤس الذي عانى منه الجزائريون في فرنسا، وقدم من خلال هذا المكان صورة الضياع الذي أحسّ به الشعب إحساساً مرّاً بسبب اغتصاب الأرض وتأزم المعيشة، وكلّ ما أحسّ به البطل في ذلك المكان حرّك كوامنه. اندفع يبحث عن ذاته وهويته وعن الأرض الثائرة، وقد أدرك لا محالة أنّ العنف والثورة كفعل وأسلوب هما الوسيلتان الوحيدتان لمجابهة العدو مجابهة مصيرية. ومنطق الثورة هو الذي سيحطّم منطق الاستعمار بلا شك: « فالحنين إلى الوطن هو حنين إلى مكان الفعل الذي تصنع عبره الملاحم دون سواء من الأمكنة »²².

فالقضية هنا ليست قضية الوجود فحسب، لكنها قضية القوة والكرامة وكيفية تحقيقهما. والبطل واثق من أنّه سيحقّق وجوده، ويستعيد كرامته حيث يستعيد وضعه الطبيعي في مكانه الطبيعي. فهذا المكان في علاقته بالبطل: « يظلّ عاملاً أساسياً من عوامل تأكيد الوجود وتحقيقه وتثبيته، وبذلك يكتسب مظهراً إيجابياً في هذه العلاقة »²³. ومن المؤكّد أنّ سيرسخ كيانه، ويثبت هويته ويعمل على تحديد تصرفاته وتوجهاته لأنّه أشدّ التصاقاً بحياته.

لقد ذاق الشعب الجزائري أيام القهر والنفي أنواعاً مختلفة من العذاب والظلم فحمل الأدب على عاتقه من باب الالتزام عن قناعة وإيمان تصوير هذه الحقائق وكشف أبعادها رافضاً هذا الواقع الأليم، وبادر الكتاب الجزائريون إلى إظهار صورة الإنسان الجزائري في الغربة وتصوير همومه وإحساسه تجاه واقع متأزم ومعقد. وأفاض الشعراء في التحدّث عن معاناة النفس في الغربة. والحالة المتأزّمة التي مرّت بالبطل في قصّة (وجود...ولكن) شبيهة إلى حدّ ما بتجربة الشاعر الجزائري (مصور بولانوار) الذي وقف واصفاً تشرّده ومعاناته بين حضارتين وهويتين مختلفتين: « أبيات التقت فيها الرومانتيكية الحزينة بالواقعية الزافضة، ورافق التعبير الوجداني الدعوة السّاخطة إلى الانتفاضة الثورية:

أنا غريب في بيتي.

لم أعد أنتمي إليه، لم يعد لي أسرة.

لم يعد لي وطن ولا حبّ

.. أريد أن أهرب، أن أفرّ من أمام هذه الصّورة المظلمة ..

أريد أن أهرب لألقى الرّجال

رجال من دم وأمل.

إنّهم أصدقاء قدامى أفتش عنهم

لأصعد على الأرض إلى مكاني القديم

لأصعد على الأرض إلى قلوب أشباهي

فأعثر على نقطة الثّقل

على صمودي

على وزن الكلمات الحيّة .. »²⁴.

شارك الشاعر إذن أخاه في تحمل آلام الغربة، ونجد: « عبد الله الشريط يتألّم منها وهو في باريس:

ظمئت إليك يا وطني لأني غريب في جبالك والزوابي

غريب في بحارك والفيافي غريب في سهولك والهضاب²⁵

ويستبدّ الحزن الرومانتيكي على شعر حسن شبلي: «لأته غريب ومشردّ عن أرض وطنه:

في هذا اليوم الحزين

على ضفة الايزر

بكيت مصيري المنسوج بالبؤس

ونهارى الغائب عن أيّامي بكيت.

ويقلق محمّد ديب من الغربة التي لا يهدأ فيها حنينه إلى وطنه، فقال في قصيدة الميناء يشكو أوجاع الغربة في

باريس:

يا ليالي باريس الناعمة كم أنت مرّة

باريس المظلمة جحيم للمنفى»²⁶.

إنّ الإنسان المغترب قد يقيم في دار غريبته بين حدائق وقصور ولكنّه لا يألّفها، حتّى يُردّ إلى ديار آبائه وأجداده، هناك يتنفّس ملء رئتيه ويعطي غاية جهود عقله ويديه، وحسّه، وبينه ويؤسّس وهو مدرك أن ما بينيه يحمل طابعه ويلائم جوّ أرضه وسمائه. فالأرض هي الخيار الوحيد بين جميع المغريات، وقد عبّر عن هذا الموقف ذاته الشّاعر (مصور بولانوار) قائلاً:

«يعيدونني بالسّماء.

وأنا لا أريد سوى هذه الأرض بإشراقها المجنون

بكرومها الفائضة

بحصادها الملتئم

بحصادها المثير

أنا أريد سوى العشب

ملكا على غلاتي»²⁷.

أكدت قصّة "وجود.. ولكن" على وحدة الشعب الجزائري، وقدمت صورة مكانية عميقة، استطاع الكاتب بلورتها للوصول إلى عمق التجربة. فقد انطلق من الفردية لجسد المأساة الإنسانية التي هي في النهاية مأساة الشعب في ظلّ الاحتلال. فالقصّة برمزيّتها: «حنين إلى المكان واستنارة لما في الذاكرة من تداعيات وجدانية فياضة»²⁸. والتعلّق بالمكان هو تعلّق بالأرض والإصرار على الانتماء إلى وطن حرّ، أجمع الجزائريون على اقتدائه بأرواحهم ومصائرهم. ذلك أنّ الدّفاع عن المكان وتعميره هما دليلان على الوجود.

خاتمة

يرتبط الإنسان بأقدم فضاء وأرسخه وهو الأرض، ووجوده لا يتحقّق إلّا من خلال انتمائه لهذه الأرض. ، لذلك ارتبط البحث عن الهوية بالبحث عن المكان والنّضال من أجل استرداده إن كان مغتصباً. فالذّات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها بل تنبسط خارج هذه الحدود، حيث المكان الذي يمكنها أن تتفاعل معه.

تتطوي حميمية العلاقة بالأرض على بعد نفسي تمثّله القيم والروح والمحبة التي تضيف على الأشياء قيمةً جماليةً، وتظلّ لهذه العلاقة قدرة التّحكم في كثير من تصرّفات الانسان وتصوراته، فكلّ شيء يتلوّن بما توحى به هذه العلاقة من معاني الحبّ.

إنّ الوطن يشهد فرح الإنسان وشقاءه وهو ليس معطى مادياً فحسب، إنّما هو حقيقة مادية وحقيقة نفسية وجدانية في نفس الآن، هو كيان مادي من حيث هو مجموعة من العناصر الموضوعية المحسوسة الموجودة في ذاتها، وهو يتراعى أمامنا وتشاهده العين على أنّه واقع منفصل عنّا، وهو كيان وجداني فكري ينشأ داخل الذات البشرية بسبب تفاعلها مع هذا الكيان، وتجسّمه جملة الأخيلة والأحاسيس والمشاعر والرؤى والذكريات والانطباعات وغير ذلك ممّا تبنيه الملكات من الانفعالات والأفكار.

استوعب الخطاب القصصي الجزائري مفهوم الأرض كبعد إنساني تحركت خلاله كل تفاعلاته وتجاربته التي ربطته وتربطه به، كعلاقة انتماء واستقرار ووجود، فتحوّلت صورة الأرض إلى دلالة الحياة والوجود بكل ما تحمله هذه المفاهيم من معاني البقاء والانتماء والديمومة والبحث والخلص، فالأرض علامة وحياة، وهي ابتداء وانتهاء وانتماء.

الهوامش:

¹ _ عبد الله ركيبي، 1982، نفوس ثائرة قصة (اختار الطّريق)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ص 89.

² _ المرجع نفسه، ص 91.

³ _ ركيبي، (اختار الطّريق)، ص 91.

⁴ _ ركيبي، (اختار الطّريق)، ص 91.

⁵ _ نبيلة إبراهيم، 1986، فنّ القص في النّظرية والتّطبيق، دار قباء للطباعة ، ص 135

⁶ _ الاخضر بركة، 2002، الريف في الشعر العربي الحديث قراءة في شعرية المكان، الجزائر، دار الغرب للنشر و التوزيع، ص 92.

⁷ _ ركيبي، (اختار الطّريق)، ص 92.

⁸ _ سيزا قاسم درار، 1990، مشكلة المكان الفنّي بقلم يوري لوتمان، جماليّات المكان، ص 63.

⁹ _ ركيبي، (اختار الطّريق)، ص 92.

¹⁰ _ غاستون باشلار، 2000، جماليّات المكان، تر غالب هلسا، ط5، بيروت، المؤسسة الوطنية للدراسات و النشر و التوزيع، ص 57.

¹¹ _ ركيبي، (اختار الطّريق)، ص 93.

¹² _ ركيبي، (قصّة وجود ... ولكن)، ص 35.

¹³ _ ركيبي، (وجود ... ولكن)، ص 35.

¹⁴ _ المرجع نفسه، ص 35 - 36.

¹⁵ _ ركيبي، (وجود ... ولكن)، ص 36.

¹⁶ _ المرجع نفسه، ص 36 - 37.

¹⁷ _ ركيبي، (قصّة وجود ... ولكن)، ص 37.

- ¹⁸ _ المرجع نفسه، ص 37 – 38.
- ¹⁹ _ رشيد بن مالك، 2006، السيميائيات السردية، ط1، عمان، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، ص 131.
- ²⁰ _ ركيبي، (قصة وجود ... ولكن)، ص 38.
- ²¹ _ المرجع نفسه، ص 40.
- ²² _ أحمد حيدوش، 1994 المكان ودلالته في الشعر الجزائري إبان ثورة التحرير 1954 – 1962، مقالة في مجلة الثقافة، ع 104، الجزائر، ص 123.
- ²³ _ محمد الباردي، 2002، الرواية العربية والحدث، ط2، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 236.
- ²⁴ _ نور ل سلمان، 1983، الأدب الجزائري في رحاب الرّفض والتّحرير، ط2 بيروت، دار العلم للملايين، ص 331.
- ²⁵ _ المرجع نفسه، ص 331.
- ²⁶ _ نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرّفض و التحرير، ص 333.
- ²⁷ _ نور سلمان، ص 326
- ²⁸ _ علي جعفر العلاق، 2002، الدلالة المرئية، قراءة في شعرية القصيدة الحديثة، ط1، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص 74.